

## حوار

تمثّل زينب التوجاني (مواليد باجة \_ 1978 ) الحيك الجديد من الباحثات التونسيات في مجال الحضارة الصربية الإسلامية، وهي من الجيل الثالث للباحثين في الدراسات المتعلقة بتاريخ النبوة والقرآن وقراءات النص الديني الذي اشتهرت به الجامعة التونسية من خلال مجموعة من الباحثات مثل نائلة السليبي، واماك فراصي، والفة يوسف، ولطيفة الأخضر وناجية الوريمي...
أستاذة الحضارة في كلية الآداب والفنون والإسانيات في «جامعة صويرة»، والاختصاصية في تحليل الخطاب الديني، أصدرت أخيرا كتاب

■ هناك اهتمام كبير في السنوات الأخيرة بدراسة الإسلام الأول؛ هل تعتقدن أن بنية السلطة العربية ما زالت محافظة على الجوهر نفسه منذ سقاية بني ساعد؟
- يعود الاهتمام الكبير بدراسة الإسلام الأول لمحاولات الباحثين والباحثات المعاصرين تفكيك النص بنية السلطة وأسسها البسيطة المكونة لتاريخها والمفسرة لهذا الصراع الدامي المتواصل التي تحول دون تركيز دول حديثة قوية وصلبة. فأصراع حول السلطة بدأ منذ فترة الدعوة المحمدية لأن الدعوة الدينية في البداية لم تنتشر عبر الإقناع فقط، ولولا هجرة النبي وأخواته وتحالفاته السياسية، لم يكن للدين الجديد أن تعلق كلمته بين العرب. ولذلك، فقد ارتبطت منذ البداية مسألة الدين بالدولة لأن التجربة الأولى لدولة النبي كانت في المدينة، وفيها كتب أول دستور في الإسلام هو صحيفة المدينة ونظمت الشرائع وضبطت القوانين المسيرة لدواليب هذا المجتمع الجديد المبني على أسس غير قبليةٍ والْمُنصهر وراء دعوة النبوة، أمالاً شعار التوحيد. وهي التجربة النواة التي تكمن في كل الحركات الجهادية الرَّافعة للواء التوحيد والشاعية للاستيلاء على الحكم. لذلك مثلت دراسات الإسلام الأول ليس فقط مجالاً معرفياً علمياً، بل ضرورة من ضرورات العصر الذي نعيش فيه عودة الديني بقوة وصعود إيديولوجيات الحركات الجهادية المستمدة من فكرة الدعوة النبوية الأولى شرعيتها وحجيتها. أما الصراع حول الخلافة في سقاية بني ساعدة، فإنه مؤسس لانشقاق عميق في الضمير الديني الذي جمع المسلمين للمرة الأولى على أسس غير قبلية. فقد كشف ذلك الصراع بين الأنصار والمهاجرين من جهة، وبين الأوس والخزرج من جهة ثانية، والأوسيين وبني العباس من جهة ثالثة، لطبيعة العنصر القبلي الذي يحرك الصراع حول السلطة والذي تغلب على الديني وإن تقف به. لقد عادت صراعات بني هاشم وبني أمية التي حسمها عمر بن الخطاب لغادة أبي بكر الصديق، مستغلاً انشقاقاً داخلياً في صفوف الأنصار. وبتغليب علي بن أبي طالب عن هذا الإجماع التأسيسي، بدأت شرارة مظلمية لم تنطفئ إلى اليوم ونتج عنها جرح عميق لم يندمل وتناثرت خلفه تبعات وتاجحت بالقتال بين الإخوة الذين كانوا بالأسس يقفون على سبيل الدين الجديد، تدفعهم نبوة واحدة وهدف واحد، لكنهم ما إن فقدوا الرجل الذي كان يجمعهم، حتى عادت صراعاتهم القبلية تتحكم بهم وحاولوا أن يعوضوا النبي بالكتاب، فعملوه ضماناً لوحدتهم وجمعوا حوله من جديد، لكنهم مرة أخرى افرقوا في تأويله وفهمه حسب خلفاتهم السياسية ومصالحهم المذهبية. لذلك فإن دراسة هذا التاريخ الأول يفتح آفاقاً على كيفية نشأة المذاهب المتنازلة على اليوم وكيفية نشأة الطوائف وماهية الصراع وعلاقته بالتاريخ وكيف حاولت

تهميشاً عبر الشبكات الاجتماعية بالأخبار، يكشفان عن حياة ممكنة أخرى تجعل هؤلاء يطرحون أسئلة عن العدالة والحفظ المتكافئة. وبذلك، فإن كل بني الأنظمة الأبوية لم يعد بإمكانها الصمود أمام هذا الواقع الجديد الذي لم يعد يقدر الدولة فيه أن تتحكم بمواطنيها كما كانت تفعل حين كانت تسيطر على وسائل الإعلام وتتحكم بها. فتورة رقمية تجلب معها بالضرورة ثورة قيم جديدة وضغوطاً اجتماعية المجتمع العربي وتحديثه أم صوب أسلمته؟ السؤال هنا مرتبط بالوعي والإصرار على الهدف، واعتقد أن القوى الحداثية تصارع بكل قوتها من أجل إنقاذ المصير المشترك وأن عقبات الإسلام السياسي طبيعية، لكن الإرث التونسي وإرادتهم القوية على التحديث والتقدم سيجعلهم قادرين على زحزحتها والتغلب عليها.

■ بعد «14 جانفي»، عرف الشارع التونسي ظواهر متّصلة بالتدين مثل الصلوات الجماعية في الشارع، الاعتداء على الحريات الحجاب، إلخ... هل كانت هذه الظواهر طارئة على المشهد التونسي أم هي ترجمة لما كان ممنوعاً؟
- التدين التونسي متنوع المظاهر وعميق في أن، تؤكد ذلك منزلة «الزيتونة» وعلمائها لا عند التؤنينيين فحسب، بل حتى في البلاد تكفر التونسيين وتعتبر تلك العادات والموالد والأضرحة والطقوس والأعراس والأفراح الملتصقة بالعيد، فتروج أن الأفريقية والبربرية وحتى بعض المعتقدات التي تعود بنا إلى ديانات قديمة جداً كعبادة الألهة الآم، ويتجلى ذلك في طقوس الزواج والولادة والحلي التقليدي التونسي؛ السمكة والعين والخمسة وغير ذلك مما يخزن تديناً عميقاً متنوعاً. ولذلك، فإن التونسيين بطبعهم ميالون إلى الإيمان بقدرات الغيب منذ أقدم العصور، وهم قد تعبير عن امتعاض سياسي

## كلمات

# زينب التوجاني: المؤسسة الفقهيّة سلبت العتق العربي

«التواب والعتاق في كتب تفسير القرآن» (مؤسسة مؤمنون بلا حدود).

التوجاني أيضا ناشطة ضمن جمعيات المجتمع المدني ومساهمة في الحراك النقابي والاجتماعي الذي تعيشه تونس منذ سقوط النظام السابق، أسهمت في العديد من البحوث المنشورة من بينها، «منهجية التكفير في مدرسة اهل الحديث» و«في مسألة رؤية الله السعيدة»، و«حدود الله في خطاب الإسلام السياسي المفهوم ومآزقه الأنطولوجية»، و«مفهوم تطبيق الشريعة في فكر دعاة الإسلام السياسي، مقاربة نقدية»، و«قراءة

لجماعة كانت انشطتها ممنوعة قبل الثورة.

يجب التمييز إذن بين امرين: بين علامات التدين وعلامات الانتماء لجماعة الإخوان، وهما امران متداخلان لأن الإخوان يعتمدون على التدين الشعبي وفي تصوراتهم للحياة والوجود، لكن الذي نرى منذ خطاب تحفيل المنابع، فهو خطاب الحركة الإخوانية لأنها تعتمد على التدين الشعبي متنوع المظاهر المظلومية لكسب التأييد، فتروج أن البلاد تكفر التونسيين وتعتبر تلك العادات والموالد والأضرحة والطقوس والأعراس والأفراح الملتصقة بالعيد، فتروج أن الأفريقية والبربرية وحتى بعض المعتقدات التي تعود بنا إلى ديانات قديمة جداً كعبادة الألهة الآم، ويتجلى ذلك في طقوس الزواج والولادة والحلي التقليدي التونسي؛ السمكة والعين والخمسة وغير ذلك مما يخزن تديناً عميقاً متنوعاً. ولذلك، فإن التونسيين بطبعهم ميالون إلى الإيمان بقدرات الغيب منذ أقدم العصور، وهم قد تعبير عن امتعاض سياسي

في كتاب «الواد الجديد» لزهية جويرو و«النسوية الإسلامية»... كما أسهمت في الندوات العلمية والنقافية داخل الفضاء الجامعي وخارجه، ولها مقالات رأي في تفكيك خليات خطاب الإسلام السياسي والمساهمة في نصرة الحريات والمساواة والدفاع عن الفكر النقدي والعلمانية. يمكن اعتبار التوجاني «الحفيدة» العلمية لرواد الدراسات الإسلامية المتخصصة في قراءة النص الديني مثل الراحل محمد الطالبي احد مؤسسي الجامعة التونسية، وعبد المجيد الشرفي رئيس أكاديمية «بيت الحكمة» في تونس. لكن ما

# المستوى العالمي، هناك نزعات

كان جرة وشجاعة لسياسي حكيم بعد نظر.
أولاً، لقد راهن بورقيبة على المرأة التونسية بتسريع إصدار مجلة الأحوال الشخصية وتمكينها من جملة حقوق تحفظ كرامتها واستقلاليتها على المجتمع نفسه على الأقل بالقانون، ومخن وطنه بذلك من فرصة النجاة من مكر التاريخ، فقد برهنت المرأة التونسية تأسيس جديد. من خلال بحثي الزهمان على قدراتها. واعتبر بلا مبالغة أنها أنقذت الوطن، ووقفت ضد كل المحاولات التي سعت إلى المس بمدنيته والعودة به إلى ما قبل مجلة الأحوال الشخصية. وقد فهمت حكومة الترويكا ذلك ولاحق الرموز الإخوانية، واعتدى بذلك على بعض الحريات الرغمة النساء بتغطية شعرهن والصلاة في جماعة وفتح المساجد وتربية الأطفال. لكن الباحث في تاريخ هذه الجماعات، يمكنه أن يلاحظ أنها للحظة التي اتخذ فيها بورقيبة قراراته الجريئة التي أسهمت في الفصل بين الدين والدولة وتقليص سلطة الزيتونيين، كانت ناتجة عن مسار تطور طبيعي بدأ قبل بورقيبة بسنوات عدة. فحركة الإصلاح في تونس بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر وقد لعب الزيتونيون أنفسهم دوراً فيها. ولنذكر على سبيل المثال مساهمتهم في تأسيس المدرسة الخلدونية عام 1896 لاستكمال المعارف العصرية التي لم تكن تدرّس في جام الزتونة. وقد وضع كبار المشايخ الزيتونيين أنبأهم في التعليم العصري وفي المدرسة الصادقية بحثاً منهم عن آفاق أخرى لهم غير تلك التي يتيحها التعليم الزيتوني. كما أن دولة الاستقلال أنشأت المدارس العمومية في أنحاء البلاد، وكان من الطبيعي إدخال المعارف العصرية واللغات والمهارات التي ستمكّن الشباب والشابات من أدوات البناء الجديد على أسس عصرية، فمشروع بورقيبة في الأصل ثمرة جهود مصلحين تونسين سبقوه إلى وضع اللبنات الأولى، ولا يمكننا أن نغفل جيل الثلاثينات وفكر الطاهر الحداد بشكل خاص، والرغبة التي صاحبت ذلك الجيل في التشبع بمعارف وعلوم جديدة عصرية، فكيف يمكن أن نعتبر مشروعا كهذا مسقطاً للأمنيم يجعل الشاب يفكر في طريقة سهلة للتخلص من كل ذلك، فيربح بضربة واحدة نجاة الأخرية من دون عناء المرور بعذاب القبر أو عذاب الصراط أو الجحيم. فها هنا ننهين أن بعض الغامبي في ابن أبي الصيف (توفي عام 1874) ومحاولاته تقبيد الحكم بالقانون بآركا.

■ اهتمت في كتابك العنقاب في مسألة التواب والعقاب في تفسائر القرآن، ألا ترى أن الأزمة الحقيقية اليوم هي مسألة التوبن وإن التنظيمات المتطرفة هي نتاج هذه الأزمة؟

- الأزمة الحقيقية اليوم كونية من جهة وثقافية من جهة ثانية. على

تفأول مبالغ أخفى حقيقة مأساة الوجود من جهة وحقيقة الشرور التي يقترها الإنسان باسم الدين من جهة ثانية. مثلاً الموت في الثقافة الإسلامية ليس عقاباً ولا عقاباً بل الموت بمسئلة حسنة أخرى ويفقد كل دلالات الشر المتعلق به، بل إن التخويف من الحساب والعذاب الذي يخظر الأئمنيم يجعل الشاب يفكر في طريقة سهلة للتخلص من كل ذلك، فيربح بضربة واحدة نجاة الأخرية من دون عناء المرور بعذاب القبر أو عذاب الصراط أو الجحيم. فها هنا ننهين أن بعض الغامبي في ابن أبي الصيف (توفي عام 1874) ومحاولاته تقبيد الحكم بالقانون بآركا.

■ زينب التوجاني تقريباً هي أصغر الباحثات التونسيّات في مجال الدراسات القرآنيّة. تاجية الوريمي، زهية جويرو، أمال فراصي، بثينة بن حسين، الة يوسف، ونعني بإعادة التأسيس القطيعة الاستيمولوجية التي لا تنتج سوى بتراكم معرفي هائل من

السبت 25 كانون الثاني 2020 العدد 3964
الأخبار

3

سلوى بالحاج، سهام اليساوي، نائلة الع... هل نستطيع أن نتحدّث عن مدرسة تونسية نسوة في هذا المجال؟
- درستُ في الجامعة التونسية في آخر التسعينات وهي فترة عصيبة على الحريات في المجتمع التونسي. لكني لم أشعر قط بفضل الحريات الأكاديمية وجسرة أساتذتنا واستقلاليتهم عن السلطة السياسية وأصالتهم الفكرية والحقوقية بوجود حدود للمعرفة ولا بخطوط حممر لطلب العلم. وبعض هؤلاء الباحثات كنّ أساتذاتي في كلية الآداب في صويرة، ونحن اليوم زميلاتي وقد كنّ خير سند وقُدوة لنا. وهنّ لا يبخلن على الأجيال الجديدة بالدعم لأنهن يعملن من أجل قضية هنّ مؤمنات بها بصدق. إنهن يشكّلن الأمن المعرفي التونسي في نظري وهن ثروة وطنية حقيقية رغم كل ما قد يقال عن الصعوبات التي تعانيتها المؤسسات التربوية، إن في الجامعة التونسية أساتذة أجلاء غرسوا تقاليد أكاديمية وقبما أصيلة كحب المعرفة والثقة بالذات ولم يميزوا بيننا على أساس الجنس قط، وبعضهم في غير اختصاص الحضارة وقد أشروا فبنّا ايما تأثير وحمونا من الاستعبداء بكل أنواعه. لقد أورتونا سلاها هو المعرفة العلمية والتقديرية لبقائنا له لأجل أنفسنا ولأجل وطننا. أمّا الأئزاز وحده، المحجد الشرفي وهو المهندس الأول لاختصاص الحضارة في الجامعة التونسية، فقد ترك أثره البالغ في المجتمع لا في الجامعة فحسب، لأنه نتعامل مع هذا النصّ هنا فنقرّخ أن نخرح من تلقينه على أساس الوجود من جهة وحقيقة الشرور التي يقترها الإنسان باسم الدين من جهة ثانية. مثلاً الموت في الثقافة الإسلامية ليس عقاباً ولا عقاباً بل الموت بمسئلة حسنة أخرى ويسلم بحدت الموت وبقبلته. هذا من جهة أمر إيجابي لأنه يقدم معنى للحياة ويخفف وطأة عقبتها ورهبة الموت، لكنه من جهة ثانية سبب كل التبريرات التي تقدمها الحركات المتطرفة للمتخثرين فيها والتي بها يفجرون أنفسهم. من دون أن ترد. ذلك لأن الموت بمسئلة حسنة أخرى ويفقد كل دلالات الشر المتعلق به، بل إن التخويف من الحساب والعذاب الذي يخظر الأئمنيم يجعل الشاب يفكر في طريقة سهلة للتخلص من كل ذلك، فيربح بضربة واحدة نجاة الأخرية من دون عناء المرور بعذاب القبر أو عذاب الصراط أو الجحيم. فها هنا ننهين أن بعض الغامبي في ابن أبي الصيف (توفي عام 1874) ومحاولاته تقبيد الحكم بالقانون بآركا.

■ زينب التوجاني تقريباً هي أصغر الباحثات التونسيّات في مجال الدراسات القرآنيّة. تاجية الوريمي، زهية جويرو، أمال فراصي، بثينة بن حسين، الة يوسف، ونعني بإعادة التأسيس القطيعة الاستيمولوجية التي لا تنتج سوى بتراكم معرفي هائل من

السبت 25 كانون الثاني 2020 العدد 3964
الأخبار

3